المغني

في الحجرة الفقيرة المورد
النار في الموقد
والعود في غطائه الاسود
معلق على الجدار
كأنه شهادة الميلاد :
ولدت في ضفة نهر النيل
طعمت من تمر النخيل
عباءتي من شمس مصر
في عامي الخمسين
عذبني الحب .. وأضناني الرحيل

***

هذا هو الشيخ الذي جئنا اليه
يسلم في رفق لصاحب يدا
لم يتأفف من تراكم الزحام
من وطأة الايام والآلام
من متشاجرين كانا يلعنان ..
وعاقل كان يسب الشكل والجوهر
عند عبور شارع الازهر

***

حين يغني .. ،
تضيق عيناه الكفيفتان ..
بالزمن المخنوق
يتسع الشهيق .. ،
في جسمه الهش الرقيق
حرفا فحرفا .. نقطة فنقطة ..
فاصلة ففاصله
تصير هذه الحروف كلمة منقوشه
على أصابع اليدين حين تمسكان
بالعنق والريشه
تحتد ساقاه النحيلتان .. ،
ويصبح العود الذي يسكن بين الساعدين
الرئة الثالثة التي تريح شيخنا
الرئة الثالثة التي تريحنا
ونحن في مجلسه المكتظ بالسكون
والآهات والضحك
تمسكنا علامة التعجب ..
تمسكنا حروف الاستفهام ..
والكلمات الفارقات في بحار الحزن
والفضيله
بيننا هو الوحيد بيننا الذي يعيش ما
يقول ..
ووجهه المرتاع .. برق وغيوم ومطر
وصوته الآتي من البعد السحيق ،
... يبعث الحق الذي اندثر
وهو على الاريكة الجافة . ،
... مفعم الحواس .. فارع الاثر
معلقا في الريح قلبه ..
معلقا جبينه برأية الخطر :
يعزف للثورة والشفيله
يعزف حتى تخلع القتيله
أكفانها الثقيله
يعزف للريف وللمدينه .. ،
أغنية ضاحكة حزينه
الخبز والسهر .. ،
النور والظلام . والرياح والقمر
يعزف للصغار والكبار
يعزف لانتظارنا فوق خطوط النار
يعزف حتى يصبح السلام بالايدي . ،
لقاء مصريين ينشدان ما ينشده الشيخ
لقاء مصريين .. يعرفان بيت الشيخ
ويرشدان قادما جديدا .

***

في قلعة الفكر .. وفي ازقة الخصام . ،
يمكن ان تلقاه :
ينشد للناس أغاني الحرب والسلام
ممددا على لساننا الذي ينطق في الظلام
مبللا في جبهتي وجبهتك ..
متهما في ردهات الحب والاحلام
في طرقات الليل .. في تتابع الاقدام ..
في صخب الطريق .. في الحريق ..
... في الشجار .. في المصالحات .
وفي مدرج احتفال الجامعات . ،
يمكن ان تراه :
مبتسما .. والسيف يهوي فوق عينيه الكفيفتين
منتفضا .. في قلبك المذعور من اصابة السهام
لكن ما يقوله يمشي اليك . ،
... عابرا مخاوف الابدان
لان كلمة من التاريخ لا ترد . ،
... مهما عبثت بها مساحة الاعلان ..
او شوهت نقاطها .. متاجر الاقلام

***

يا أيها الشيخ البريء والمدان .. ،
أبكيك في العصر الذي يعز فيه الدمع
ويرخص الباكي امام الترجمان
ابكيك في العصر الذي يعز فيه الدمع
ويفقد الانسان فيه كلمة الانسان
يا أيها الشيخ البريء والمدان .. ،
أبكيك وحدي .. عندما يزور طيفك الرقيق
في الصحو والمنام
أبكيك وحدي .. صامتا .. ويائسا من الكلام
يا أيها المحظور في النطق وفي الاشاره
هل يا ترى تمزق اللثام ؟
واختفت العجمة من نطق اللسان !.
الخوف يا شيخي ثقيل .. ،
... مطبق على اليدين .. جاثم على الجنان
من يا ترى يسألني ..
ينقذ هذه البقية التي تلوذ بالكتمان
من يا ترى يسمعني ؟ ..
يكتب لي توصية لصاحب الايوان
حتى يكيل الصاع صاعا واحدا ..
بلا زيادة .. ولا نقصان !.

***

يا أيها الشيخ البريء والمدان :
وأنت في ظلامك المضاعف الرنان
يختلط النهار والليل .. ،
... وتفقد الفصول وجهها المزدان
القرفصاء جلستك .. ،
الخلفاء الراشدون ندوتك ...
والكلمات المنتقاة للنبي ..
والزاد والعطاء والعزاء في القرآن
قصيرة طويلة ايامك التي تمر
واللقمة التي تجيء من يد السجان مر
وقطرة الماء التي تراود الظمآن . ،
تلوح كالطيف الجميل خارج القضبان
وأنت عريان الضلوع . ،
... مستباح الرأس ..
... ترفض الهوان
وتمنح الاحزان .. صوتها الشجاع
والجسد النحيل . ،
... نيل ونخيل ..
... وقلاع وامتناع
يقهر ذل القيد .. يزدري بهاء الصولجان ..
منتصرا على برودة البلاط ..
واحتدام الصمت في الجدران

***

صرير مفتاح يدور في عروق باب زنزانه
اهانة تلو اهانه .. ،
وانت لا تسمع غير صوت مصر

***

النبأ الاخير .
المسجد الاقصى احترق .

القاهرة — بدر توفيق